سحر خليفة

سحر خليفة

«لم نعد جواري لكم!»

obeikandl.com

تقول المؤلفة في وصف مشاعر رسامة تحب، لكنها ترفض الزواج ممن تحب:

«ووقفت أمام المرآة تتأمل صورتها، وعلى شفتيها الجريئتين ابتسامة.. ماكرة، كان شعرها الأسود الأملس ينحدر خيوطاً حريرية سوداء.. مغطياً كتفيها ونهديها.

«ما زلت فتاة.. باباً مغلقاً، أرضاً بوراً، لوحة لم ترسم بعد، وأنا في الانتظار.. انتظار الطارق الجريء، الفلاح المعطاء، الرسام المبدع، وهذه البلاد لا تحتوي إلاّ رجالاً.. يحلمون بإناث يحبلن ويلدن.. ويحشين ورق العنب.

وابتسمت بسخرية.. عليَّ أن أختار بين عبودية الفن وعبودية الرجل، والفن عبودية تقود إلى الحرية أما عبودية الرجل فمذلة وانكسار، وقد أخذت طريقي ولن أحيد عنه، فقد أجد الحب.. يوماً.. ولكنني لن آخذه إلاّ من إنسان لا ينتظر مني مولوداً كل سنة، ويقعدني مشلولة.. عن التفكير والحركة في انتظار رجوعه إلى البيت حاملاً.. صلعته وبطيخته».

ـ هذا التعبير ليس بغريب فإن الأنثى.. المتحررة الفكر والكيان، تأبى أن تكون قعيدة بيت. لا همَّ لها إلاّ انتظار عودة رجلها. وهو تعبير صادق

أيضاً لأوضاع المرأة المتخلفة في بعض المجتمعات الشرقية ثم التمرد الطبيعي على هذه الأوضاع.

«الجو هنا كئيب، والفراغ والملل يسيطران على الجميع، ولقد كتب على المرأة أن تعيش محنطةً في هذه البلاد. أن تكون مجرد أنثى وعليك يا عزيزتي أن ترضي بهذا.

لا لن أرضى.. يجب أن تثور المرأة على هذا الوضع، وأن ترفضه لأن مجرد الشكوى لا يجدي شيئاً. يجب أن تتطلع المرأة إلى آفاق أوسع، إلى مجالات أكثر عمقاً واتساعاً، عليها أن تفرض وجودها وأن تنزل إلى ميادين العمل. أن تشارك الرجل في كل مجالاته.. حتى السياسية منها، أين الصحفيات؟.. أين الأيدي الناعمة في المصنع مثلاً؟.. ألم ترَ ما فعلته الصناعة في المجتمع الأوروبي؟.. لقد قلبته رأساً على عقب. تطورت المبادئ والنظريات والقيم، حتى أنظمة الحكم تغيرت، فأين نمت الاشتراكية وترعرعت؟ أليس في الأجواء الصناعية؟!.

ثم ماذا تقول سهى.. الملتاعة باستغراق:

«الحب..؟ أنا أخاف الحب رغم بحثي المتواصل عنه. يقولون إنه روح الجمال في هذا العالم، ولكن الحب يبطر العظماء. أتعرف.. عندما أجد من يحبني.. ويعجب بي ويحملق فيَّ بدهشة وإكبار، لا يعود بإمكاني الالتفات لمواهبي الأصلية التي سببت دهشة ذاك الإنسان وإعجابه وحبه، أنسى كل ما أنا عليه، ولا أذكر إلاّ حملقة ذلك الإنسان وأبدأ في التفكير هكذا، لو كان باستطاعتي أن أزيده دهشة وأزيده حملقة وأزيده حبّاً.

وآخذ في افتعال النبوغ. أي إنني أبدأ بالتمثيل والتمثيل صورة.. وليس أصلاً، فتأتي العظمة التي أدَّعيها مشوهة ممجوجة. وأثناء ذلك التمثيل.. أشعر بأني أقوم بعمل قذر.. بالتزوير مثلاً. أو بإنجاب لقيط أو باختلال في نظام جسمي بفقدان المقدرة على التحكم في عضلاتي وأعضائي، كما لو كنت أحاول استخراج ضحكة من أعماقي، وإذا بي بدلاً من استخراج ضحكة أستخرج قيئاً.

واستوت في جلستها تتلفت حواليها، كمن يبحث عن حل لمشكلة يقع تحت طائلتها.. وضربت صدرها وحشرجت: لو كان باستطاعتي قتل مادتي!.

أعلم أني لو قتلت جسدي فإنني أقتل روحي أيضاً.. لو كان باستطاعتي سحق هذا الجسد، لو كان باستطاعتي التخلص من قشرتي لكان بالإمكان أن أصبح إلهاً.

وشدّت يديها إلى صدرها وهتفت ووجهها يتقلص ويتشنج:

يا للعذاب الآن، الآن عرفت من أين يأتي الحزن. عرفت أن صراعي إنما هو محاولة فاشلة للوصول إلى الله.. قد أصل.. ولكن.. للحظات، لأن جسدي يشدّني، قشرتي تقوقعني، جذوري في الأرض تجذبني، حزني لم يسببه الفقر والجوع ولم يسببه الغضب والتعب.. لم يسببه نكران الناس وتحقيرهم.. حزني كان لضياع الإنسان من الأرض والسماء. والحزن هو المفاعل المولد للطاقة والحرارة، فلو كنت سعيدة لما أنتجت ولما فكرت ولما تحديت.

إذن فالحزن نار مقدسة تكوي لتصقل وتصهر لتفني ـ وهذا هو الثمن ـ ثمن مجدي.

قال لها: ولكنك ما زلت ضائعة:

هذا العذاب والصراع الأبدي بين رغبة الأنثى في الاستسلام لحياتها الطبيعية، وصراعها لإثبات وجودها بالعمل الملهم الذي لا يتفجر إلاّ بتقلبات المرارة والحرمان.

هذا الجسد الثائر الذي لا تريد له الامتهان، تريده حراً طلقاً من الاستعباد لغرائز الرجل، ولذائذ الرجل، هذه الحيرة الأزلية، تعارض الفن مع الارتباط بالرجل، في الحالتين هي ضائعة.. ضائعة، يا للأنثى وعذاباتها من نفسها.. بنفسها!

«لم نعد جواري لكم»!

هل لا بد أن تكون المرأة جارية.. ولا شيء عدا ذلك؟!.

وهل يأبى الرجل عليها متعة الاستغراق في مواهبها وتطلعاتها الخاصة، ويقف حائلاً بينها وبين التعايش مع ذاتيتها، لتكون وقفاً عليه وحده.. ونسيجاً له وحده؟!

إننا لم نعد جواري لكم «بهذا تصر وتصر» سحر خليفة.. على ترديد هذا القول، في كل كلمة من روايتها الطويلة.

والعذاب، والألم، وضياع الإنسان بين الأرض والسماء، هل هو ثمن المجد، ثمن الإنتاج الفني. بالممارسة يتضح أن هذا حقيقي، فالسعادة أبداً لا تعطي إيجارات الفن إنما الألم والحرمان والحزن، هي النار المقدسة لتقدم روائع الإنتاج الأدبي والفني.

ومع هذا فإن المرأة هي المرأة.. في الزواج.. تقول: إنه عبودية، وفي التحرر تقول: إنه ضياع وإحساس الظلم دائماً يلازمها.

دائماً ساخطة، دائماً حائرة، لا تعرف ماذا تريد، وما هذا الذي تبحث عنه.

تقول سهى: كنت أظن أن الشهوة والحب والجنس ستمحو حزني وغضبي. لكنه كله عبث عبث، وظللت أبحث وأبحث.. وأبحث.. عن الجمال والكمال.. والعدالة، واكتشفت أن الفن يحتوي هذا كله ولكن لحظة الفن تلك.. مؤقتة.. تلك اللحظة التي تبهر الأنفاس بعمقها وصفائها.. وسحرها، والتي كنت أود ألاّ أستفيق منها.. مؤقتاً مع الأسف، أعود بعدها إلى ما كنت عليه.. من حزن وغضب فكيف أنجو؟.. لو أنني أعرف فقط، لو أنني أعرف؟ أين أجد كل ما أبحث عنه؟!.

وتبتسم في النهاية بسخرية وتردد ما قالته في البداية:

كان عليَّ أن أختار بين عبودية الفن وعبودية الرجل. والفن عبودية

تقود إلى الحرية أمّا عبودية الرجل فمذلة وانكسار، وقد أخذت طريقي ولن أحيد عنه.

وسحر خليفة في أسلوب التمرد على الأوضاع تتمرد به شعراً في أماكن أخرى من مؤلفاتها.. حيث تقول:

هو الملك.. وأنا الحريم..

لأني امرأة...؟

لأني.. من صنف الحريم..؟

بعلي تزوَّج أربعة..

ماذا يهمّ...؟

لو ألهبتني غيرتي..

لو أحرقتني.. دمعتي..

لو جففتني وحدتي..

ماذا يهمّ..؟

لو بتُّ في قصر الجحيم..

فهو الملك..

وأنا الحريم..

* * *

يا إخوتي لا تسألوا..

لا تذهلوا..

لو كان يمشي.. خجلاً..

لو كان يشبه عجلاً..

obeikandl.com

لو أطرشاً أو أحولاً..

لو أحمقاً أو أهبلاً..

فهو الملك..

وهو الوزير..

وهو الأسد.. يا أخوتي..

حتى ولو أن الزئير..

مستبدل بصدى الشخير..

هواي.. رذيلة...؟

زناه.. رجولة...؟

جمالي عورة..

فجوره ثورة..

وله الجواري بعد موتي..

أما أنا..

فإلى الجحيم..

وعقلي سقيم..

فكري سقيم..

لو كنت أفهم.. من فهيم...؟

فهو الحكيم..

وهو العليم..

حتى ولو كان..

بهيم..

obeikandl.com

يا أمة نساؤها..

تساق نحراً كالبقر..

أبشر أخي بحضارة..

يمجها ذوق النَّوَر...

* * *

يا للمرأة من الرجل، ويا للرجل من المرأة، الحق مع من؟

إن الرواسب والمعتقدات البالية التي تفرِّق بين الرجل والمرأة، والتي تصور المرأة كجسد فقط أداة أو ملهاة للرجل، ما زال بها من رواسب الماضي الشيء الكثير.

وإن الاحتلال يعكس صورة قائمة على النفس من الإحساس

بالظلم والطغيان، أياً كان نوع هذا الطغيان

طغيان دولة، أو طغيان رجل.

وتقول:

عبثاً أبحث عن حل.. لهذا المأزق، إنني أبحث عن الحياة حتى أجدها. وعندما أجدها أهرب منها، أخاف أن تبطرني وتنسيني سر وجودي ومعنى حياتي، وأغوص في أعماق التساؤلات، وأتخبط وأقرر أني ما خلقت للحياة العادية، وأعرف أني لو وجدت الحل فسأجد الطريق.. وإذا وجدت الطريق فسأعيش الروتين وسأصبح عادية، مجرد إنسانة عادية مرت بهذا العالم مرور الكرام، دون أن يكون لمرورها أثر أو بصمة. ولكنني ما وجدت لهذا السبب فقط كي أعيش إنسانة عادية تأكل وتشرب، وتبحث عن الحب.

هل الحب.. هو الحل..؟!

كل هذا الصراع.. لأنها تحب..؟

والحب عائق عن الإبداع. الحب عبودية للرجل. الحب يغشى كل

كيانها ويذيب عقلها ومشاعرها، وإبداع فنها في كيان الرجل. هذه هي المشكلة، أتحب؟

- أم ترسم..؟؟ أيكون لها وجود، أم تذوب في وجود الرجل؟

قالت سهى هامسة ووجهها يكاد يلتصق بوجهه ودموعها تنحدر على وجنتيها، وعيناها تتأملان وجهه بعبادة:

- مهما قلت، مهما زجرت، مهما وعظت فأنا أحبك.

وأمسكت بيده، ودفنتها في عنقها كقطة مسالمة وقالت:

«المرأة تعشق الرجل الكبير وأنت كبير. أحس بك تملأ فراغ العالم كله، ومعك يكون للأشياء معنى وللحياة معنى، وحتى للشقاء معنى»..!

* * *

- لغة المرأة - ترفض العبودية.. وتنادي بالحرية، ثم تعود راضية هانئة بعبوديتها في التدله.. بحب رجل.

* * *